الفصل الثاني

العلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها

في عصر النبوة الزاهر

في الفصل الفائت فرغنا من متابعة جملة المسائل المتعلقة بالعلم والتعلم والتعليم والعلوم الطبيعية وتطبيقاتها في المرجعيات أو المصادر التشريعية الإسلامية وهي المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ونبدأ من هذا الفصل في رصد التطبيقات والممارسات الفعلية الخاصة بالمسائل سابقة الذكر على مدى تاريخ الدولة الإسلامية وحضارتها التي بدأت منذ تأسيس دولة المدنية وحتى وقتنا الراهن .

وتجدر الإشارة منذ بداية هذا الفصل إلي القول بأن عصر النبوة الزاهر انطلاقاً من كونه هو عصر نشأة الدولة الإسلامية الأولى وهو كذلك عصر انبعاث الإسلام وانبلاج الدعوة إليه لذا فقد اتسم بسمة أساسية وهي أن التركيز طيلة هذا العصر كان على العلوم الدينية الهادفة إلي تثبيت الدين وترسيخه في عقول وقلوب المسلمين ثم التأهب لنشره في كافة الأرجاء مما أدى إلي محدودية الاهتمام بالعلوم الطبيعية وهذا يلتقي مع طبيعة المجتمع العربي حينذاك الذي أتسم بالفقر الحضاري وشحة وتشوه الموروث الثقافي .

وسوف نتابع الحركة العلمية في المجتمع الإسلامي الأول مجتمع فجر الإسلام من خلال المباحث الأربعة التالية :

المبحث الأول : العلم .

المبحث الثاني : التعلم .

المبحث الثالث : التعليم .

المبحث الرابع : العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر النبوة الزاهر .

المبحث الأول

العلـــــم

الحديث عن العلم في عصر النبوة بوصفه النشأة الأولى للدولة الإسلامية وكذا حضارتها التي ازدهرت سريعاً يعد مسألة دقيقة وتحتاج إلي معالجة خاصة ، حيث تصور البعض أن المسلمين الأوائل لم يكونوا يرحبون بالعلوم الطبيعية وأنهم كانوا ينظرون إليها على أنها " الخطوة الأولى على الطريق المفضي إلي الزندقة " ولكن الأمر لم يكن بهذا الوصف الذي يصور الرعيل الأول من المسلمين على أنهم من القصور الفكري بما يجعلهم ينظرون إلي الظواهر الطبيعية وموجودات الكون بسذاجة وسطحية ويصور الإسلام على أنه دين يعادي العلم ولا يعترف بالعقل ويعتمد على غيبيات وأفكار دوجماطيقية ، ومن ثم فلابد من الإشارة إلي جملة من الحقائق الخاصة بطبيعة العلم في عصر النبوة الزاهر ، وذلك من خلال الآتي :

مبررات إعطاء الأولوية المطلقة لعلوم الدين :

يرتكز الإسلام شأنه شأن كافة الديانات السماوية على قضية محورية هي الإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالألوهية والربوبية ، ويتداخل في هذه القضية الجوهرية ركنان أساسيان يمثلان معاً قوامها الذي تنتصب عليه ولا تبدو في شكلها الصحيح المتوازن إلا بقيام هذين الأساسين : الأساس الأول ، هو التسليم والاستسلام لله الواحد الأحد والدعوة التي جاء بها الرسول الكريم عن ظهر الغيب ، الأساس الثاني ، ضرورة إعمال العقل للنظر والتفكير والتدبر في آلاء الله وآياته بما يدعم الأساس الأول ويرسخ الإيمان الغيبي بالله فالأول يحتاج إلي قلب أسلم زمام أمره للدعوة ووقرت فيه وملكته تماماً ، والثاني يلزمه فكر سوى قويم يثبت ما وقر في القلب ويرسخه .

إذا كانت القضية الإيمانية بهذا الوصف المتقدم فهي تحتاج من الرسول الحامل للرسالة إلي جهد وعناء في تثبيت محوري القضية وترسيخ مرتكزيها في قلوب وعقول قوم يتصفون بحدة الطبع والكفر المتأصل في القلب والعقل ، وهذا الجهد كان يستوجب التركيز الشديد في اتجاه الدين أصولاً وفروعاً واعتبار ما دونه ثانوياً .

فالمحور الأول كان هدف الدعوة منذ انبعاثها وقد أبلى فيه المسلمون بلاءً حسناً حيث انقادوا للدعوة مستسلمين وأسلموا أمرهم لله ورسوله . أما المحور الثاني فقد جاهد الرسول الكريم من أجل أن يتخول أصحابه وعموم المسلمين ببث العلم في عقولهم لكي يثبت ما في صدورهم وقلوبهم وكان علم الدين هو الأجدر بالرعاية والاهتمام ولو أن علم الدنيا لم يغفل نهائياً .

لقد جاء الإسلام نظاماً اجتماعياً شاملاً كافة نواحي ونشاطات الحياة ولم يأت شعيرة أو نسكاً يؤدى بمعزل عن الحياة وحركتها الدائبة ، وبعبارة أكثر دقة أن الإسلام إنما جاء لضبط وتأطير الحياة وفق معايير وضوابط وضعها الشارع العظيم من أجل تحقيق غاية مثلي خلق من أجلها الناس جميعاً ، ولهذا تشعبت علوم الدين وتداخلت وتغلغلت في تفاعلات الحياة ومست جميع أحوال الناس وعنيت بكافة أمورهم ، وهذا التشعب والتداخل في علوم الدين الذي كافأ تشعب تفاعلات الحياة وحركتها كان يحتاج إلي إلمام بأصولها وفروعها ودقائقها ولم يكن أمام المسلمين الأوائل من بد عن القيام بذلك العبء الثقيل الذي تلقوه عن الرسول الكريم مباشرة إما وحياً في القرآن وإما قولاً وسلوكاً وإقراراً في السنة النبوية المطهرة .

إزاء ما تقدم كان علم الدين وفقهه وفهم كافة دقائقه هو هم المسلمين الأوائل ومثل ذلك كان هم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم ضاقت الفرجة ولكنها لم تنغلق تماماً أمام

العلوم الطبيعية التي برزت في حياة المسلمين بشكل إلزامي حينما أصبحت أمراً تمليه حركة الحياة وتفاعلاتها .

ثم يعن في هذا السياق سؤال آخر مفاده : هل كان لبساطة الحياة وطبيعة البيئة العربية البدوية غير الموغلة في الحضارة المعقدة إضافة إلي وازع الزهد في الحياة الذي كان يمثل ركناً مهماً من أركان العقيدة الجديدة ، هل كان لكل ذلك دور يعول عليه في عدم الاتجاه سريعاً وبشكل مباشر منذ انبلاج فجر الدعوة الإسلامية إلي العلوم الطبيعية وتطبيقاتها حال حياة الرسول الكريم وحتى في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة ! إن مراجعة متأنية لتلك الحقبة من حياة الدعوة الإسلامية تقودنا إلي استنتاج ما يمكن أن يرقى إلي مستوى الحقيقة المؤكدة التي مضمونها أن واقع الحياة في تلك الحقبة التاريخية وفي تلك البقعة الجغرافية وما حوته تلك الحياة من معطيات معقدة وصارمة فرضت على المسلمين الأوائل الاقتصاد في كل شيء وحدت من طموحاتهم في حياة الدعة ورغد العيش التي كانت متوفرة بشكل غير أخلاقي للمياسير من رجالات قريش والقبائل العربية الأخرى ، يلتقي مع هذه الوجهة ويزكيها وازع الزهد الذي فرض نوعاً من القناعة على المسلمين الأوائل وصل إلي حد الإعراض عن الحياة الآدمية العادية وتفضيل شظف العيش بقناعة ورضا .

يرتبط بما قدمنا ارتباطاً وثيقاً أن عصر النبوة كان يمثل للإسلام وعقيدة التوحيد عصر التركيز ثم التمكين وهذان يشكلان بدورهما أهم منطلقات الانتشار في كافة الأرجاء ، وتحقيق ذلك أن الفترة التي شملت عصر النبوة وحتى عصر الخلافة الراشدة كان كل الاهتمام فيها منصباً على نشر الدعوة ، وكان ذلك يقتضي التركيز على علوم الدين التي تحتاج إلي الدعاة الحافظين لها المتفقهين في أصولها وفروعها ، وقد جعل ذلك من الصعب توفير وقت للاشتغال والانشغال بالعلوم الطبيعية التي تحتاج إلي الجهد والوقت والتأمل ،

ولكن اقتصر اللجوء إلي العلوم الطبيعية على ما يتعلق عضوياً بحياة المسلمين في تلك الفترة مثل الطب والترجمة التي كانت ذات أهمية في نشر الدعوة الإسلامية .

القرآن والسنة مصدر كافة العلوم :

منذ فجر الدعوة الإسلامية والي أن يرث الله الأرض ومن عليها سيظل القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة المصدر النهائي والمطلق لأصول الدين وعلومه وكذا لأصول وأسس العلوم الطبيعية ، وقد أيقن المسلمون الأوائل ذلك وأردفوا اليقين بالفعل القويم فظلوا ينظرون إلي العلوم الطبيعية على أنها لابد أن تنطلق من القرآن والسنة وكانوا في ذلك على قدر عظيم من الرؤية الصائبة والاحترام العميق والتوقير الكافي لمصدري الشريعة الجديدة المتجددة القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وتحتاج وجهة النظر سابقة الذكر المزيد من تكثيف الضوء والإيضاح ، فالقرآن الكريم والسنة المطهرة بتكاملهما كمصدري للشريعة الإسلامية حويا كافة أصول الدين واستوعبا جميع ثوابته ، أما المتغيرات والمستجدات والعوارض فقد حدث إزاءها فراغ تشريعي وسكوت حكيم ، حيث تركها المصدران للناس في كل زمان ومكان يتولون صياغتها وترتيبها بالشكل الذي يتوافق مع الأصول والثوابت ويتواءم مع الزمان والمكان ، هكذا تعامل القرآن والسنة مع علوم الدين .

وبالنسبة للعلوم الطبيعية فقد قدم القرآن الكريم والسنة المطهرة إشارات ولمحات لظواهر طبيعية منها ما اكتشفه الإنسان ومنها ما لم يتم التعرف عليه بعد ، كما بينا قيمة العلم لكل من الإيمان والدين والحياة ، ولكن الشريعة لم تكن في هذا الخصوص بمثابة مرجعيات ومصادر تهتم بالغوص في ظواهر الكون والعلوم الطبيعية ومسائل البحث العلمي ، ولكن

ذلك واجب المسلمين الذين يبحثون في تلك العلوم منطلقين من الحث والتشجيع اللذين زخر بهما مصدرا الشريعة القرآن والسنة .

إن ما أوضحنا كان كفيلاً بأن يجعل المسلمين الأوائل في عصر النبوة يتعاملون مع العلوم الطبيعية بحذر وعدم اكتراث مفضلين اقتفاء أثر تلك العلوم في القرآن والسنة ومكتفين بالتقاط الظواهر من القرآن الكريم ومستشهدين بالأحاديث النبوية طوال عصر النبوة وحتى في عصر الخلافة الراشدة .

الاهتمام بالعلوم الطبيعية أمر يمليه واقع الحياة وتطوراتها :

الواقع أن العلوم الطبيعية وتطبيقاتها لم تكن هدفاً أو مطلباً أساسياً سعي المسلمون الأوائل إلي تحقيقه ولكن الاهتمام بها برز من كونها أمراً يمليه واقع الحياة وتطوراتها ، فلم يكن المسلمون في عصر النبوة في حاجة ماسة إلي البحث في علوم مثل النبات أو الحيوان أو علم الأرض والمعادن ولم يكونوا كذلك مضطرين إلي دراسة الجغرافيا أو التاريخ ولم يكن ثم ما يدعوهم إلي تناول علوم مثل الرياضيات أو الفلك أو البصريات إلاّ أن المدخل الحقيقي للمسلمين إلي هذا العلوم كان هو واقع الحياة وتطوراتها التي فرضت عليهم بشكل تلقائي ومتدرج اللجوء إلي العلوم الطبيعية لمواجهة المواقف والوقائع التي مروا بها وهم بصدد نشر الدعوة وتبليغ الدين الذي كان يمثل شغلهم الشاغل وهمهم الأول في تلك الحقبة المتقدمة من تاريخ الإسلام .

فعلما الطب والعقاقير برزت الحاجة إليهما كوسائل لمواجهة الأمراض ثم أصبحت الحاجة أكثر إلحاحاً للأخذ بهذين العلمين وتطويرهما نظرياً وميدانياً لأهميتهما في ميادين القتال عندما تعددت البعثات الدعوية في عصر النبوة وكذا في عصر الخلافة الراشدة .

كما أن الترجمة ومعرفة اللغات باتت مطلباً حيوياً بل أمراً من الرسول الكريم لبعض الصحابة للتعامل والتعاطي مع الأمم المجاورة للدولة الناشئة سواء أكان ذلك التعامل في إطار العلاقات السلمية مثل الحبشة أو في سياق الصراع العضوي الذي يهدف إلي حمل وتوصيل الدعوة إلي الشعوب الأخرى مثل الفرس والروم ثم إلي بقية شعوب الأرض .

لقد أصبح المسلمون معنيين بتحديد اتجاهات جيوشهم والتمرس والدربة على الطرق والمسالك والإلمام بطبيعة الأرض التي يجوبونها والمدن التي يقصدونها وهنا برزت ضرورة معرفة علم مثل الجغرافيا حيث خُصص لكل بعثة رجل أو أكثر على دراية بكل ذلك حتى يسهلوا مهمة الجيش استراتيجياً وتكتيكياً وكذا لوجستياً لتحديد مواضع استراحة الجيش دون خطورة ومواضع الإمداد والتموين وأقرب وأأمن الطرق والمسالك لذلك .

ثم عندما يستقر المسلمون في منطقة من المناطق أو قطر من الأقطار فهم مدعوون إلي معرفة تاريخه وتاريخ شعوبه وحكامه بل إن ذلك كان يحدث قبل أن يتحركوا إلي تلك البلدان والمناطق والمثال على ذلك مصر حيث حدّث عنها الرسول الكريم قائلاً لأصحابه " استوصوا بأهل مصر خيراً ففيها خير أجناد الأرض " ، فعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" أنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط " ، وفي رواية :" ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً " ، وفي رواية :" فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلي أهلها فإن لهم ذمة ورحماً " ، أو قال :" ذمة وصهراً " ، ومن ثم كان علم التاريخ والإلمام بسير المناطق والبلدان والشعوب من العلوم التي دخلت إلي المسلمين من واقع الحياة وحركتها الدائبة .

بعد ذلك وبدءً من أواخر العصر الأموي تعقدت أشكال الحياة وتنوعت أنماطها وأصبحت العلوم الطبيعية وتطبيقاتها من أهم مقومات الحضارة الإسلامية وبرع المسلمون منذ ذلك التاريخ في الطب والعقاقير وعلوم النبات والحيوان والأرض والمعادن والجغرافيا والتاريخ

والترجمة والرياضيات والفلك والبصريات وغيرها من العلوم وكان ذلك أيضاً محكوماً بتطور الحياة وتقدم الحضارة والمدنية .

الرسول الكريم يولى اهتماماً بالطب والترجمة :

إذا تحولنا من التعميم إلي التخصيص نجد أن الرسول الكريم منذ استقراره في المدينة المنورة وسعيه نحو تشكيل النظام الاجتماعي للدولة الجديدة وإقامة المجتمع المدني يركز اهتمامه على ما يحتاجه ذلك المجتمع الناشئ بشكل ماس من العلوم الطبيعية ، وقد كان الطب والترجمة من أهم العلوم التي برزت حاجة المجتمع الإسلامي الأول إليها ، وسوف نفصل كيف كان اهتمام الرسول الكريم بكل من الطب والترجمة في موضع متقدم من هذا الفصل .

المبحث الثاني

التعلـــم

في الجزئية القائتة تناولنا العلم في عصر النبوة من خلال تكثيف الضوء على جدلية العلاقة القائمة بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، وكيف كان للأولى أهميتها المطلقة انطلاقاً من الطبيعة الخاصة للدين والدعوة إليه في المجتمع الإسلامي ، وكيف اكتفى ذلك المجتمع من العلوم الطبيعية بما يلبي متطلباته الأولية ويحقق أهداف حركته نحو نشر الإسلام .

وفي هذه الجزئية نتناول مسألة أخرى وهي مسألة التعلم وطلب العلم ، فما مدى أهمية التعلم وطلب العلم في فجر الإسلام وفي أول مجتمع مسلم عرفه التاريخ ، ومن المتعلمون وطالبو العلم وما هو دورهم في ذلك المجتمع الناشئ وماذا سيكون دورهم بعد ذلك في مستقبل ذلك المجتمع الذي سيكون نواة لدولة مترامية الاطراف وحضارة زاهرة ، وذلك من خلال الآتي :

أهمية التعلم وطلب العلم في فجر الإسلام وفي أول مجتمع مسلم :

التعلم هو أول واهم المسائل التي ينبغي أن تحوز اهتمام المعلم الأول وهو الرسول الكريم ومن حوله من الصحابة والحواريين الرّبيين ، حيث التعلم هو أول وأهم أدوات تحصيل العلم بالدين والإلمام بتعاليمه من الرسول الكريم الذي يوحي إليه بذلك ، ومن ثم فالمتابع لهذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام والدولة الإسلامية يلحظ أن أهم عملين كان يقوم بهما المسلمون الأوائل في عصر النبوة هما : تلقى العلم من الرسول الكريم قرآناً ينزل به الوحي وأحاديث يتحدث بها الرسول أو أفعالاً يقوم بها أو أخرى يُقرها أو يسكت عنها حينما تؤدّي ، وهذا التلقي يتم عبر وسائل الحفظ في الصدور والفهم بالسؤال والاستفسار ، وبعد ذلك يأتي العمل الثاني وهو السعي نحو نشر الدين الجديد والدعوة إليه ، وهنا يلاحظ أن

العمل الأول هو تعلم وتلق للعلم وتحصيله والثاني هو تعليم ونقل للعلم وتلقينه وعليه فحياة المسلمين الأوائل هي بين هذا وذاك .

إن ما تقدم يبرز أهمية العلم وأهمية تعلمه وتحصيله في حياة المسلمين الأوائل الذين عايشوا الرسول الكريم وذلك بأنهم سيكونون حملته ومبلغيه إلي كافة الناس ، وقد اختار الحق تبارك وتعالى أمة المسلمين وهؤلاء هم أوائلها لكي يكونوا خير أمة أخرجت للناس وعليهم شهداء ، فهي إذن الرسالة ، رسالة التبليغ والدعوة في الدنيا والشهادة في الآخرة ، وفي ذلك قال الحق تبارك وتعالى في شأن هذه الأمة : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ .[4]

---

[1] . سورة آل عمران : ١٠٤ .
[2] . سورة آل عمران : ١١٠ .
[3] . سورة البقرة : ١٤٣ .
[4] . سورة آل عمران : ١٤٠ .

وقال تعالى ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ .[1]

الصحابة وتلقي العلم وتحصيله من الرسول الكريم :

كان صحابة رسول الله أول من تلقى عنه العلم وحفظه ووعاه ، فكانوا يلازمونه في ظعنه وأقامته وحله وترحاله ، وكانوا أحرص ما يكونوا على حفظ القرآن والحديث ، وفهم أسباب النزول وتفسيره وتدقيق الأحاديث وفقه معانيها ، كما كانوا على وعي تام بمسئولية الحفظ والتلقي عن الرسول الكريم فتحروا الدقة والأمانة .

لقد كان الرسول الكريم يواظب على تعليم أصحابه ، وكانوا من جهتهم حريصين على تلقي العلم وفهمه ، فعن عمر رضى الله عنه قال " كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوماً وأنزل يوماً فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته فضرب بابي ضرباً شديداً فقال أثَمَّ هو ففزعت فخرجت إليه فقال قد حدث أمر عظيم قال فدخلت على حفصة فإذا هي تبكي فقلت طلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لا أدري ثم دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت وأنا قائم أطلقت نساءك قال لا فقلت الله أكبر " .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلي أبي بكر بن حزم انظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فأني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل إلا حديث النبي ولتفشوا العلم ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً .

---

[1] . سورة الحج : ٧٨ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : ما من أصحاب النبي أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب .

وعنه أنه قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو إن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات إلي قوله الرحيم ، إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله بشبَع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون .

وعنه أنه قال : قلت يا رسول الله إني أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه ، قال أبسط رداءك فبسطته ، قال فغرف بيديه ثم قال ضمه فضممته فما نسيت شيئاً بعده .

وعنه قال : حفظت من رسول الله وعاءين فأما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم .

وعن ابن مسعود قال كان النبي يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا .

وعن أنس رضى الله عند أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا " .

وكما كان الصحابة يتلقون العلم ويحفظونه عن الرسول الكريم كانوا كذلك يتلقون العلم من أكثرهم علماً وفهماً للدين ، فقد كان عبد الله يذكر الناس في كل خميس فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم قال أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملّكم وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي يتخولنا بها مخافة السآمة علينا .

الوفود التي تقصد الرسول الكريم للتعلم ثم نقل العلم إلي قومهم :

لقد شاع التعلم وطلب العلم في عصر النبوة في العديد من الأحياء والقبائل العربية ، وقد اقترن ذلك بالدخول في الدين الجديد ، وقد جاء التعلم وطلب العلم في هذه الحقبة المتقدمة من التاريخ الإسلامي مقترناً بظروف ومعطيات شتى منها ظروف الدعوة للدين الجديد ومنها موقف العرب المنتشرين على صعيد شبه الجزيرة في أنماط ونماذج حضارية ذات طبيعة بدوية وقد ساهمت تلك الظروف والمعطيات في صياغة أشهر نموذجين من نماذج التعلم وطلب العلم ثم نقله وتداوله إلي طالبيه من حديثي الإسلام والراغبين في اعتناقه :

– الصحابة الذين انتشروا بين القبائل المختلفة على صعيد شبه الجزيرة بعد أن تلقوا العلم بالدين على يدي الرسول الكريم سواء أكانوا من أبناء المجتمع المتماس مباشرة مع الدعوة الجديدة في مكة والمدينة أي من المهاجرين والأنصار أو من تلك القبائل والأحياء العربية وعاشوا في المجتمع الجديد ثم عادوا إلي قبائلهم للتبشير بالدعوة بداءة أو لتعليم من آمن ودخل الإسلام .

– الوفود التي كانت تقصد المدينة المنورة من أنحاء شبه الجزيرة لتلتقي الرسول الكريم وتتلقى عنه العلم ثم تعود إلي قبائلها لتباشر مهمة التعليم .

فعن أنس ابن مالك قال : بينما نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد دخل رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال لهم أيكم محمد والنبي متكئ بين ظهرانيهم فقلنا هذا الرجل الأبيض المتكئ فقال له الرجل ابن عبد المطلب فقال له النبي قد أجبتك فقال الرجل للنبي إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد عليّ في نفسك فقال سل عما بدا لك فقال أسألك بربك ورب من قبلك آلله أرسلك إلي الناس كلهم فقال اللهم نعم قال أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلى الصلوات الخمس في اليوم والليلة قال اللهم نعم

، قال أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة قال اللهم نعم ، قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا فقال النبي اللهم نعم ، فقال الرجل آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبه أخو بني سعد بن بكر .

وعن أنس رضى الله عنه قال : نسخ عثمان المصاحف فبعث بها إلي الآفاق ورأى عبد الله بن عمر ويحي بن سعد ومالك ذلك جائزاً ، واحتج بعض أهل الحجاز بحديث النبي حيث كتب لأمير السرية كتاباً وقال لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس وأخبرهم بأمر النبي .

وعن عبد الله بن عباس قال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بكتابه رجلاً وأمره أن يدفعه إلي عظيم البحرين فدفعه عظيم البحرين إلي كسرى فلما قرأه مزقه فحسبت أن ابن المسيب قال فدعا عليهم رسول الله أن يمزقوا كل ممزق .

وعن أنس بن مالك قال : كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً أو أراد أن يكتب فقيل له إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة نقْشُه محمد رسول الله كأني أنظر إلي بياضه في يده فقلت لقتادة من قال نقشه محمد رسول الله قال أنس .

وعن ابن عباس قال : إن وفد عبد القيس أتوا النبي فقال من الوفد أو من القوم قالوا ربيعة فقال مرحباً بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى ، قالوا إنّا نأتيك من شقة بعيدة وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده قال هل تدرون ما الإيمان بالله وحده قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وتعطوا الخمس من المغنم

، ونهاهم عن الدُّبّاء والحنتم والمزفت والنقير ، وفي رواية المقير قال احفظوه وأخبروه من وراءكم .

ما قدمنا ينتهي بنا إلي خلاصة مفادها أن المسلم كان دوماً متعلماً ومعلماً ، فهو يتلق العلم من مصادره الأصلية ثم يتولى مهمة نشره ونقله إلي غيره من المسلمين ومن الناس عامة ، ويبرز في هذا السياق ما سبق وأوضحناه في صدد عدم كتمان العلم ، فقد قال الحق تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾ .[1]

[1] . سورة البقرة : ١٥٩ و ١٦٠ .

المبحث الثالث

التعليـــم

التعليم هو تلقين العلم وبثه بين طالبيه ، وقد كان العلم في عصر النبوة — كما سبق وأوضحنا — ينصرف جميعه إلي علم الدين الذي يشمل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، والمعلمون هم العالمون والعلماء الذين يحملون العلم من مصادر شتى وأهمها على الإطلاق القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقام بمهمة التعليم في عصر النبوة ثلاثة ، الأول علّمه الله سبحانه وتعالى بوحيه الأمين وهو الرسول الكريم ، والثاني هم الصحابة وتلقوا تعليمهم من الرسول الكريم والثالث هم الوفود التي كانت تأتي إلي الرسول الكريم والصحابة فيتعلمون العلم ثم ينقلونه إلي أقوامهم وذويهم ، وذلك من خلال الآتي :

الرسول الكريم [المعلم الأول] :

الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم هو معلم الأمة الإسلامية والبشرية الأول ، علمه الله سبحانه وتعالى عن طريق وحيه الأمين ، فقال جل شأنه ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٠ ﴾ .[3]

---

[1] . سورة النجم : ١-٥ .
[2] . سورة النساء : ١١٣ .
[3] . سورة يس : ٦٩ و ٧٠ .

وتمثلت وسائل التعليم في عصر النبوة في التلقي المباشر عن الرسول الكريم ثم الحفظ في الصدور ، فقد كان الصحابة يحفظون القرآن عن ظهر قلب وكذلك يحفظون أحاديث الرسول في كافة الموضوعات والمسائل والأحكام والمناسبات وكان الرسول الكريم لطيف في تعليمه لصحابته خبير بكيفية التعليم حكيم بالتأثير في مستمعيه ومتابعيه .

فعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تُفهم عنه وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً .

وعن عبد الله بن عمرو قال تخلف رسول الله في سفر سافرناه فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثاً .

وعن أبي هريرة أنه قال : قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة قال رسول الله لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه .

وعن ابن أبي مليكة أن عائشة زوج النبي كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه وأن النبي قال : من حوسب عُذّب قالت عائشة فقلت أو ليس يقول الله تعالى فسوف يحاسب حساباً يسيراً قالت فقال إنما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك .

لقد علّم الرسول الكريم الصحابة الأمانة والدقة في تلقى العلم ونقله وتعليمه فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي

ومن رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " .

وعن أبي جحيفة قال : قلت لعلي هل عندكم كتاب قال لا إلا كتاب الله أو فهم أُعْطِيَهُ رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة : قال قلت فما في هذه الصحيفة ، قال العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر .

وعن ابن عباس قال لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعه قال : ائتوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده قال عمر إن النبي صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا فاختلفوا وكثر اللغط قال قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع فخرج بن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين كتابه .

وكان الرسول يعلّم أصحابه وطالبي العلم في كل مكان ولعل أهم تلك الأماكن كان المسجد وقد اعتاد المسلمون بعد ذلك أن يعقدوا في المسجد حلقات العلم والذكر إلي أن تم تخصيص دور للعلم عرفت بالمدارس .

فعن عبد الله بن عمر أن رجلاً قام في المسجد فقال يا رسول الله من أين تأمرنا أن نهل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يهل أهل المدينة من ذي الحليفة ويهل أهل الشام من الجحفة ويهل أهل نجد من قرن ، وقال ابن عمر ويزعمون أن رسول الله قال ويهل أهل اليمن من يلملم وكان ابن عمر يقول لم أفقه هذه من رسول الله .

كذلك كان الرسول يداوم على تعليم أصحابه وتلقينهم العلم في كل الأحوال والمناسبات : في السفر وفي الاستعداد للقتال وحتى أثناء القتال وبعد أن تضع الحرب أوزارها .

الصحابة :

لقد تخرج في المدرسة المحمدية أعلم علماء الأمة الإسلامية ، تلقوا العلم على يدي المعلم الأول ، وتربوا على خلقه العظيم وسلوكه القويم ، ثم ورثوا عنه العلم والحكمة بهما ساسوا أكبر دولة عرفتها البشرية وأسسوا أعرق وأول حضارة في التاريخ تجمع بين قطبي الوجود ومحوري الكون الروح والمادة فكانوا ولا زالوا وسوف يبقون نجوماً نيرة في الليل الداجي الذي تتحرك الإنسانية في اتجاهه حثيثاً .

واظب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بعثته على حفظ القرآن ثم فقهوا معانيه وفهموا تفسيره بمعايشة الوقائع والاحداث والتطورات التي نزل فيها وحفظ الأحاديث التي تفسر آياته ومن ثم كان علم الكتاب أو القرآن يتضمن خمسة فروع :

– الفرع الأول : يتعلق بفقه المعاني اللفظية والظاهرة أو القريبة للذهن والمأخوذة من ظاهر النص أو اللفظ ثم المعاني البعيدة التي لا يلم بها إلا الراسخين في العلم وهي تفسيرات ذات خصوصية تتم من خلال ربط المعنى اللفظي الظاهري بدلالات بعيدة غير مباشرة يدركها العلماء المدققون الباحثون الذين لديهم من العلم ما ليس لدى غيرهم .

– الفرع الثاني : تفسير القرآن العظيم من خلال معايشة الوقائع والأحداث التي نزل فيها أو بسببها وهذا التفسير يعرف ببيان وتفسير أسباب النزول وهذا التفسير ينصرف إلي الآيات الكريمة التي نزلت في وقائع وتطورات بعينها وتترتب عليها أحكام خاصة وعامة ، فالأحكام الخاصة هي تلك التي جاءت في تلك الوقائع بذاتها ولا يتجاوزها حكمها إلي غيرها وهنا ما يعرف بخصوصية الواقعة والحكم ، أما الأحكام العامة فهي تلك التي جاءت في وقائع بعينها ولكنها تحمل أحكاماً عامة تنسحب على كل الوقائع المشابهة بإعمال قاعدة القياس وهنا ما يعرف بخصوصية الواقعة وعمومية الحكم ، وقد قرر الصحابة

الأجلاء الذين عايشوا هذه الوقائع الآيات التي يحمل تفسيرها أحكاماً خاصة والأخرى التي يحمل تفسيرها أحكاماً عامة .

- الفرع الثالث : حفظ الأحاديث النبوية الشريفة التي تفسر آيات الذكر الحكيم ، حيث ثم أحاديث كثيرة تفسر آيات الذكر الحكيم ، وهذا يدخل في نطاق علاقة القرآن الكريم بالسنة النبوية المطهرة ، وهنا فالسنة مفسرة للقرآن وموضحة لمعانيه ومقاصده وأحكامه وليس هناك أقدر وأعلم بالقرآن ممن نُزّل عليه .

- الفرع الرابع : تفسير القرآن بالقرآن أي تفسير الآيات القرآنية بآيات أخرى ، حيث يوضح بعضها بعضاً وتنتهي إلي أحكام وحقائق واحدة .

- الفرع الخامس : وهو المتعلق بحفظ القرآن وقراءته أو تلاوته حيث اهتم الصحابة بضبط ألفاظ القرآن وطريقة نطقها لأن في ذلك تحديد المعنى والمضمون والدلالة لكل لفظة من ألفاظ القرآن الكريم ، وقد اهتموا بذلك اهتماماً شديداً فكانوا يدققون اللفظة الواحدة ويتبينوا كيف نزلت ويتثبتوا من ذلك بشتى الوسائل وأهمها الرجوع إلي من سمعوا ووعوا تلاوة الرسول أو قراءته .

كذلك انكب الصحابة على حفظ أحاديث الرسول الكريم واكتفوا بذلك حال حياته لأنه منعهم من كتابة وتدوين أحاديثه ، كذلك راقبوا تصرفاته وسلوكاته واعتبروها الأسوة والقدوة ، وبناءً عليها تصرفوا وأقاموا تعاملاتهم مع الله ومع أنفسهم ومع الناس بل وسائر موجودات الكون ومخلوقاته .

لقد تعلم الصحابة القرآن والسنة وأصبحوا بهما عالمين وفيهما علماء ، ومن هنا بدأ دورهم في تعليم أبناء الأمة فكانوا مصدر إشعاع في زمانهم وظلوا كذلك وسيبقون أبداً ، أتسم الصحابة بصفات الأمانة والدقة في نقل العلم وبالتواضع والبساطة في التعامل مع طلاب

العلم والناس وبسعة الأفق والمدارك وعمق الفكر ودقة النظر وحصافة الرأي فوضعوا أسس هذا الدين وثبتوا قواعد حضارته التي شهد لها العالم بالريادة والتفوق ولن يقدر لنا إعادة أمجاد الإسلام وحضارته إلا إذا عدنا إلي منهج أولئك الرجال .

الوفود التي تتعلم العلم وتنقله إلي أقوامهم :

سبق لنا في بند التعلم الحديث عن الوفود التي كانت تفد على الرسول الكريم لتتعلم العلم ثم تتولى مهمة نقله وتعليمه إلي أقوامهم ، ومهمة هذه الوفود إذن مهمة مزدوجة تشمل التعلم وحفظ العلم من جهة ثم التعليم ونقل العلم وتلقينه من جهة أخرى ، وقد قامت هذه الوفود بدور يعتد به في نشر الدعوة بالقبائل والأحياء العربية المختلفة في عصر النبوة الزاهر . وقد برز من هذه الوفود علماء حازوا شهرة ومكانة .

كما كان علماء الوفود من الأحياء والقبائل العربية يتحلون بصفات الأمانة والدقة في نقل العلم والفصاحة والبلاغة والتواضع والتقوى والورع .

المبحث الرابع

العلوم الطبيعية وتطبيقاتها في عصر النبوة الزاهر

فيما سبق من هذا الفصل قدمنا ما شاء الله بخصوص علم الدين وتعلمه وتعليمه في عصر النبوة الزاهر وننصرف في هذه الجزئية إلي تناول العلوم غير الدينية أو ما يعرف بالعلوم الطبيعية التي تتعلق بظواهر الطبيعة وحقائق الكون بما فيها الإنسان ، ونظراً لأسباب عديدة ذكرناها فيما سلف كان حظ هذه العلوم من اهتمام المسلمين في عصر النبوة غير وفير ، ولكن بدا بعض الاهتمام بعلمين من هذه العلوم برزت أهميتهما في حياة المجتمع الإسلامي الأول بشكل جعل الرسول الكريم نفسه يهتم بهما ويضع أول لبناتهما لتمثل أساس الصرح الإسلامي الشامخ في العلوم الطبيعية التي ارتكنت عليه الحضارة الإسلامية فيما بعد ، أما العلمان فكانا علم الترجمة وعلم الطب والعقاقير ، وذلك من خلال الآتي :

الترجمة :

كان أول ما سعى إليه الدين الجديد أن يتعرف على طبيعة الأقوام والأمم التي تحيط به وعليه أن يتعامل معها بكافة أشكال التعامل ، وقد انبعث الإسلام في قلب شبه جزيرة العرب وقد اتسمت الحياة المنتشرة والمتناثرة في نقاط حضارية بسيطة على امتداد هذه المنطقة بسمة التجانس إلي حد بعيد بشكل لم يجعل من الصعب على المسلمين الأوائل النفاذ إلي تلك التجمعات وفهم تفاعلات حياتها وطرق معيشتها ، ولعل أول مقومات التجانس تمثلت في اللغة العربية التي كانت لغة سكان شبه الجزيرة العربية ، وهكذا اختلط المسلمون الأوائل بالأحياء والقبائل العربية في سهولة ويسر .

إلا أن التعامل مع أهم وأكبر حضارتين عرفتا في ذلك الزمن وهما حضارة الفرس الساسانية وحضارة الروم كان هو الشغل الشاغل والأمر الجسيم ، وذلك لسببين يرتبطان عضوياً

ببعضهما : الأول أن هاتين الحضارتين بما تجمع لديهما من رصيد حضاري وفير وامتداد جغرافي عظيم وكيان نظمي وتنظيمي متين ونزعة صراعية عدوانية يغذيها امتلاكهما لجيوش جرارة متمرسة على الحرب إضافة إلي علاقتهما الثنائية المشحونة بالصراع العضوي المشهور ، كل ما تقدم جعل من هاتين الحضارتين خطراً محتملاً وسيكون أثره ثقيلاً إذا تجسد في شكل عدوان على ذلك الدين الغض ، الثاني أن قوة الدين الجديد واحتكامه على قيم عالمية ونزعة إنسانية إضافة إلي الوعود الإلهية بأنه دين الله الأوحد الذي ينبغي أن يسود جعل من هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين مطمحاً واقعياً يخلو من أي خيال أو مبالغة إزاء المفارقة العجيبة التي يحملها التصور الذي يراود ثلة من المسلمين الأوائل يتحلون بروح القوة والصلابة والعزم يغذيها إيمان مطلق بطلاقة القدرة الإلهية في أن تتمكن هذه العصابة بعد بضع سنين من طي هاتين الإمبراطوريتين داخل فضاء الدولة الإسلامية العملاقة .

لم يكن أمام المسلمين من بد إلا الاتصال بهذين المجتمعين ، وكانت الوسيلة الوحيدة لذلك الاتصال هي معرفة لغة كل من الفرس والروم ، وذلك هو الذي جعل الرسول الكريم بنفسه يكلف بعض الصحابة بتعلم اللغات الفارسية والرومية والعبرية وغيرها ، فقد طلب الرسول الكريم من زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود وهي اللغة التي نزلت بها التوارة اللغة السريالية وكان سلمان الفارسي على علم تام باللغة الفارسية وصهيب الرومي يعرف جيداً لغة الروم ثم انتشرت ظاهرة تعلم الصحابة للغات الأخرى إلي درجة أن تعلم بعضهم أكثر من لغة .

بالرغم مما تقدم إلا أن عملية تعلم لغات الآخرين لم تتجاوز معرفة المعلومات الأساسية عن أصحاب اللغة إلي نقل حضاراتهم وثقافاتهم كما حدث بعد ذلك في مرحلة متقدمة من تاريخ الدولة الإسلامي .

الطب وعلم العقاقير :

ننتقل في هذه الجزئية إلي مناقشة إحدى القضايا أو المسائل التي كانت محل خلاف بين من تصدوا لدراسة بدايات العلوم الطبيعية في عصر النبوة الزاهر وهذه المسألة تتعلق بالطب كعلم وتطبيقه كعلاج وما ارتبط به من علم العقاقير ، وحري بنا أن ندفع منذ البداية بحقيقة مفادها أن الطب كعلم والتطبيب أو العلاج كتطبيق لذلك العلم وما ارتبط بالعلم وتطبيقه من علم العقاقير لا يوجد من الكتاب والسنة ما يتنافى مع أي منهم بل إن الكتاب والسنة يحثان على العلاج والتداوي أخذاً بالأسباب والشفاء مرده إلي الله الشافي ، ولنفصل فيما يلي كيف تبلورت هذه الحقيقة إلي أن صارت حكماً يعوّل عليه في هذا الخصوص .

مقدمات :

قبل البحث في مسألة الطب والعلاج في القرآن والسنة أردنا أن نقدم لذلك بجملة من المقدمات تمثل مدخلنا إلي مرادنا من ذلك البحث وتتمثل هذه المقدمات في الآتي :

○ الأخذ بالأسباب والتوكل على الله :

لقد خلقنا الله في هذه الحياة لغاية حددها لنا سبحانه في كتابه العزيز وهي أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً ومن أجل ذلك خلق لنا الكون وسخر لنا موجوداته ومخلوقاته وعلينا أن نأخذ بالأسباب في الضرب في الأرض وإعمارها ونستنفد كل ما في وسعنا من أجل تحقيق الحياة الطيبة التي تعيننا على عبادة الله كما أمرنا ومن أجلها خلقنا ، وإذا أخذنا بالأسباب وقدمنا ما في الوسع من أجل تحقيق ما نصبو إليه وهو مرضاة الله من خلال الأعمال والسلوكات الدنيوية التي هي مزرعة الآخرة فعلينا أن نتوكل على الله وندع نتائج أعمالنا ومترتباتها عليه سبحانه ، فما علينا إلا الجهد وما على الله إلا التكلان .

قال تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [1] وفي هذه الآية الكريمة جاء التحرز والتحوط وهو مشاركة المؤمنين ومشاورتهم في الأمر وهذا للأخذ بالأسباب ثم العزم أي حزم الأمر وتبصره وتقليبه على كافة وجوهه ثم القيام بالفعل والتوكل على الله وترك النتائج عليه سبحانه .

وقال تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [2]. ويبدو في هذه الآية أيضاً التوكل على الله بعد أن تقطعت الأسباب وتولى المنافقون .

وقال تعالى ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [3] تبرز هذه الآية الكريمة كيف أخذ نبي الله شعيب بالأسباب وقدم كل ما في وسعه واستطاعته من أجل إصلاح قومه ثم توكل على الله وأرجع إليه سبحانه كل أموره ونتائج جهوده .

وقال تعالى ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [4] تبين هذه الآية الكريمة أن نبي الله يعقوب بالرغم من علمه الكامل والمطلق بأن الحكم لله وما شاء الله لابد أن يكون إلا أنه أخذ بالأسباب

---

[1] . سورة آل عمران : ١٥٩ .
[2] . سورة التوبة : ١٢٩ .
[3] . سورة هود : ٨٨ .
[4] . سورة يوسف : ٦٧ و ٦٨ .

وأظهر ما اعتمل في نفسه وأوصى بنيه بأن يدخلوا من أبواب متفرقة ولا يدخلوا من باب واحد ثم توكل على الله وأسلم إليه أمره .

وقال تعالى ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ .[1]

○ توخي الحذر وتحرى الدقة في الأخذ بالأسباب :

إن الأخذ بالأسباب يعني توخي الحذر والتحوط وتحرى الدقة ودراسة الأسباب والوسائل التي يأخذ بها الإنسان في كل أمور الحياة ، وكل ذلك يفيد أن الإنسان ينبغي أن يكون على علم ودراية بكل ما يقدم عليه ، فالأسباب إذن هي الوسائل التي تبصّر الإنسان وتبين له أي الطرق يسلك من أجل تحقيق أهدافه في هذه الحياة ولا ضير في أن يدقق في دراسة تلك الوسائل وتقلبها على كافة جوانبها وهو في ذلك بأمن الزلل وينشد الصواب والفلاح .

قال تعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .[2]

○ الأمور جميعاً مرجعها إلي الله :

على المؤمن أن يعلم يقيناً أنه بالرغم من الأخذ بالأسباب في جميع أمور الحياة وبالرغم من التدقيق وتحرى الحيطة والحذر في تلك الأسباب إلا أن الأمور جميعاً مرجعها ومردها وعاقبتها إلي الله فقد وضع لكل أمر من الأمور قدراً مقدوراً ، فما شاء الله كان وما قدّر فعل ، قال تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .[3]

---

[1] . سورة الطلاق : ٣ .
[2] . سورة التغابن : ١٦ .
[3] . سورة الحج : ٧٦ .

وقال تعالى ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ .[1]

وقال تعالى ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ .[2]

المرض والعلاج في القرآن الكريم :

بعد أن أوضحنا في المقدمات المبينة أعلاه أنه ينبغي الأخذ بالأسباب والتوكل على الله كما ينبغي توخي الدقة والحذر في الأخذ بالأسباب وذلك مع العلم بأن كافة الأمور مرجعها إلي الله ، علينا أن ننتقل إلي البحث في مسألة المرض والعلاج في القرآن الكريم ، وسنجد أن الذكر الحكيم قد عالج هذه المسألة في وضوح وبين إحكامها في جلاء ، وسوف نتابع ذلك من خلال العرض التالي :

○ المرض الجسماني وعلاجه بالقرآن :

أوضح الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز أن القرآن فيه شفاء لآلام البدن وأوجاعه وما يلم به من خلل في وظائف أعضائه ، فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .[3] لقد ثبت من بحوث علمية أن قراءة القرآن وما تؤدى إليه من راحة نفسية واطمئنان وسكينة ينتج عنها انتظام في الدورة الدموية وضربات القلب لدى الذين يعانون اضطرابات أو أمراض في القلب وكذلك الذين يعانون من الأمراض العصبية الناتجة عن تقلبات وأحداث العصر .

---

[1] . سورة لقمان : ٢٢ .
[2] . سورة الشورى : ٥٣ .
[3] . سورة يونس : ٥٧ .

وقال تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [1]، والثابت — كما سيرد فيما بعد — أن الرسول الكريم كان يقرأ آيات معينة على المرض أو سورة بذاتها فيذهب الله بها البأس .

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ .[2]

○ المرض الجسماني وعلاجه بقدرة الله ومعجزاته :

كذلك ورد في الذكر الحكيم ما يشير إلى أن الله قد أبرأ الأجسام الإنسانية من عللها وأسقامها بإذنه تعالى للدلالة على طلاقة قدرته ومعجزاته التي أيد بها أنبياءه .

قال تعالى ﴿ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .[3]

وقال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ .[4]

---

[1] . سورة الإسراء : ٨٢ .
[2] . سورة فصلت : ٤٤ .
[3] . سورة آل عمران : ٤٩ .
[4] . سورة المائدة : ١١٠ .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ .[1]

○ المرض الجسماني وعلاجه بآلاء الله ونعمه [ما يشبه العقاقير] :

ثم يحمل الذكر الحكيم في آياته البينات ما يدل على أنه سبحانه قد جعل من آلاء الله ونعمائه ما فيه شفاء للأمراض التي تنتاب الجسم الإنساني وهذه الآلاء والنعم خلقها الله وكانت بمثابة عناصر أو مواد طبيعية تشبه العقاقير .

قال تعالى ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .[2]

وقال تعالى ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ .[3]

○ المرض النفسي وعلاجه بالإيمان وذكر الله :

لقد ثبت أن المرض النفسي سبب في العديد من الأمراض الجسمانية ، وذلك المرض النفسي يرجع بالأساس إلي قلق الإنسان وعدم استقراره وخوفه من المستقبل وعدم قدرته على التآلف مع ما يحيط به من متغيرات ومستجدات العصر وما سبب ذلك إلا ضعف الإيمان والابتعاد عن ذكر الله ، وقد أوضح رب العزة ذلك في كتابه العزيز .

فقال تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .[4]

---

[1] . سورة الشعراء : ٨٠ .
[2] . سورة النحل : ٦٩ .
[3] . سورة ص : ٤١ – ٤٤ .
[4] . سورة آل عمران : ١٣٩ .

أي أن المؤمنين لا ينبغي لهم أن يشعروا بالضعف والاستسلام لليأس والقلق ويتملكهم الضيق مما يدور حولهم من مظاهر كاذبة قد تؤشر إلي ظهور غير المؤمنين ، ولكن واقع الأمر أن المؤمنين هم الأعلون إيماناً وعاقبة بمشيئة الله ، وهذا علاج لنفسية المؤمنين وترويح عنهم وتثبيت لقلوبهم .

وقال تعالى ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [1] ، وهذا يعنى أن نصر الله للمؤمنين يذهب غيظهم ويبرئ ما في قلوبهم من ضيق وحزن .

وقال تعالى ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [2] ، وهذا حكم خاص في واقعة تتعلق بالرسول الكريم والمؤمنين ولكنه يتحول إلي حكم عام ينسحب على كل المؤمنين المقاتلين في سبيل الله حيث يذهب الله خوفهم وقلقهم وينزل سكينته عليهم ويمدهم بعونه ونصره .

وقال تعالى ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [3] ، أنظر إلي هذا الموقف الجدير بالاعتبار والتأمل موقف رسول الله وصاحبه عندما استبد بصاحبه القلق والخوف على مصير الدعوة الوليدة والرسول الأمل ولكن الله قد أنزل سكينته على رسوله الكريم فأخذ يطمئن صاحبه بثقة وثبات وتحول الضعف والقلق إلي قوة بأمر الله .

---

[1] . سورة التوبة : ١٤ و ١٥ .
[2] . سورة التوبة : ٢٦ .
[3] . سورة التوبة : ٤٠ .

وقال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [1]، وهنا قمة الاطمئنان وغاية الثبات واليقين للقلوب التي عمرت بذكر رب العالمين فلا يأتيها القلق ولا تعرف الخوف لأنها في معية الله فما أعظمها وما أمثل واقعها حيث لا تهتم بما يقلق الناس ويخرب أنفسهم ويعيشهم في قلق وخوف واضطراب مثاره الخوف والضعف والفراغ .

وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [2]، دلالة هاتين الآيتين العظيمتين على أن المؤمنين في حرز الله ومعيته مبرؤون من كل خوف أو ضيق أو كدر ثابتون على الإيمان واثقون من حسن العاقبة .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [3]، وهنا يكون الإيمان بالله والاستقامة على طريقه باعثاً على أن يشعر المؤمن بالراحة والثبات والاستقرار ويأمن الفزع يوم يخاف الناس .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [4]، تسير هذه الآية الكريمة في سياق أختها التي سبقتها .

---

[1] . سورة الرعد : ٢٨ .
[2] . سورة فاطر : ٣٤ و ٣٥ .
[3] . سورة فصلت : ٣٠ ـ ٣٢ .
[4] . سورة الأحقاف : ١٣ .

وقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [1]، والسكينة في هذه الآية الكريمة شفاء القلوب وتخليصها من القلق والخوف والحفاظ عليها في معية الله .

الرسول الكريم يدعو إلي التداوي والعلاج :

بعد أن عرضنا لمنهج القرآن الكريم في تلمس العلاج والشفاء للجسم البشري سواء بالقرآن الكريم أو بقدرة الله وإعجازه أو بالهبات والنعم الطبيعية التي أنعم بها على عباده وجعل فيها الشفاء وكذا علاج النفس البشرية من القلق والحزن والكآبة بالإيمان والذكر الحكيم ننتقل بعد ذلك إلي السنة النبوية المطهرة لنرى كيف تعاملت مع مسألة الطب أو علاج الإنسان من الأمراض .

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى الإنسان من الشيء أو كانت به قرحة أو جرح ، قال النبي بأصبعه هكذا — ووضع سفيان بن عيينة الراوي سبابته بالأرض ثم رفعها — وقال :" بسم الله ، تربة أرضنا ، بريقة بعضنا ، يُشفى بها سقيمنا ، بإذن ربنا " .

وعنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعود بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول :" اللهم رب الناس ، أذهب البأس ، واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاءً لا يغادر سقماً " .

وعن أنس رضى الله عنه أنه قال لثابت رحمه الله : ألا أرقيك برقية رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : بلى ، قال :" اللهم رب الناس ، مذهب البأس ، أشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت شفاءً لا يغادر سقماً " .

---

[1] . سورة الفتح : ٤ .

وعن سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنه قال ، عادني رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فقال " اللهم أشف سعداً " .

وعن أبي عبد الله عثمان بن أبي العاص ، رضى الله عنه أنه شكا إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعاً يجده في جسده فقال له رسول الله : ضع يدك على الذي يألم من جسدك وقل بسم الله — ثلاثاً — وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من عاد مريضاً لم يحضره أجله فقال عنده سبع مرات ، أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك : إلا عافاه الله من ذلك المرض " .

وعنه أن النبي دخل على أعرابي يعوده ، وكان إذا دخل على من يعوده قال :" لا بأس ، طهور إن شاء الله " .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، أن جبريل أتي النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اشتكيت ؟ قال :" نعم " قال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد ، الله يشفيك ، بسم الله أرقيك .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : رأيت رسول الله وهو بالموت ، عنده قدح فيه ماء ، وهو يدخل يده في القدح ، ثم يمسح وجهه بالماء ، ثم يقول :" اللهم أعنى على غمرات الموت أو سكرات الموت " .

والحاصل من استعراض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أن طلب الشفاء والعلاج أمر غير مكروه بل أنه مطلوب بكافة الوسائل سواء بالرقية وهي طلب الشفاء من الله بالدعاء أو بقراءة القرآن وتدبره أو بتعاطي بعض المواد التي جاء في القرآن أنها تشفى من الأمراض

وذلك يوصل إلي نتيجة مؤداه أن الاستشفاء أو طلب الشفاء حث عليه ربنا العظيم ونبينا الكريم .

ممارسات التطبيب والعلاج من الأمراض في عصر النبوة :

إذا كنا قد قدمنا ما ورد في الكتاب والسنة بخصوص التداوي أو العلاج من الأمراض الجسدية والنفسية وهو ما عُرف حديثاً بالطب ، فلننصرف الآن إلي التعرف على الممارسات العملية التي تمت في المجتمع الإسلامي الأول وهو عصر النبوة بخصوص الطب والعلاج من الأمراض ويمكننا القيام بذلك من خلال ما يلي :

○ الممارسات التي صدرت عن شخص الرسول الكريم :

عن ابن عباس قال : مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضاً شديداً فأتاه ملكان . فقعد أحدهما عند رأسه والأخر عند رجليه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه ، ما ترى ؟ قال : طب ، قال : وما طب ؟ قال : سحر ، قال ومن سحره ؟ قال : لبيد بن الأعصم اليهودي ، قال : أين هو ؟ قال : في بئر آل فلان تحت صخرة في كريه ، فآتوا الركية فانزحوا ماءها وارفعوا الصخرة ثم خذوا الكرية واحرقوها ، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمار بن ياسر في نفر ، فآتوا الركية فإذا ماؤها مثل ماء الحناء . فنزحوا الماء ثم رفعوا الصخرة واخرجوا الكرية واحرقوها فإذا فيها وترفية إحدى عشرة عقدة ، وأنزلت عليه هاتان السورتان فجعل كلما قرأ آية أنحلت عقدة [قل أعوذ برب الفلق] [قل أعوذ برب الناس] .

وعن أنس بن مالك قال : صنعت اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فأصابه من ذلك وجع شديد ، فدخلوا عليه أصحابه فظنوا أن ألماً به ، فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوّذه بهما فخرج إلي أصحابه صحيحاً .

○ الاستعانة بالعالمين بالطب الممارسين له :

لقد أقر الرسول الكريم فن التطبيب ، وكان أشهر الأطباء العرب في عصر النبوة هو الحارث بن كلده الثقفي ، وقد ولد في الطائف قبل الدعوة وارتحل إلي فارس وتعلم الطب في بيمارستان جنديسابور ودرسه في هذه المدنية التي كانت تقع على مقربة من مدينة سوسة القديمة وكانت تضم أشهر مدرسة في الطب في ذلك الوقت وبها مجموعة من العلماء تمركزوا فيها بعد أن فروا من الإمبراطورية البيزنطية حيث اتهمتهم الكنيسة المسيحية في بيزنطة بالكفر .

وبعد أن درس الحارث بن كلده الطب وتعلمه عمل في خدمة خسروية ملك الفرس ، ثم عاد إلي الحجاز بعد بعثة الرسول الكريم ، وكان الحارث يستخدم في طبه الحجامة والحقن وشهدت مصادر عديدة له بالبراعة توفى عام ٣٣ هـ - ٦٥٣ م ، وخلفه ابنه النضر بن الحارث في امتهان الطب ولكن ما ذكر عنه محدود .

وأثر عن الرسول الكريم أنه أحال بعض المرضى إلي الحارث بن كلده الثقفي للعلاج ، ومن هؤلاء الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص عندما عاده الرسول الكريم وأطلع على ما ألم به من وجع .

عندما لجأ المسلمون الأوائل في عصر النبوة الزاهر إلي الطب كانوا على وعي تام بما ورد بخصوصه في الكتاب والسنة ، وهذه هي المرجعيات الشرعية التي تمثل منطلقات أساسية للمسلمين ولا مشاحة في ذلك ، وخاصة أن الرسول الكريم كان بينهم ، فتعاملوا مع الطب على أنه أخذ بالأسباب وأن الشفاء من الله سبحانه ، وهذه الوجهة هي التي دعت البعض إلي القول بأن المسلمين في عصر النبوة وحتى بعد ذلك كانوا ينظرون إلي التطبيب على أنه نوع من التدخل في مشيئة الله .

كما أن الرجوع إلي المرجعيات الإسلامية التي تتمثل في القرآن والسنة للبحث فيها عن وجهة الإسلام نجاه العلوم الطبيعية ومنها الطب مثلاً لا يعتبر نقيصة تجعل ذلك البعض يقول بأن " أهل السنة المسلمين كانوا يرون أن كل علم لا ينبع من القرآن والحديث لا يعتبر عقيماً فحسب ، بل يعتبر أيضاً الخطوة الأولى على الطريق المفضي إلي الزندقة " وبصفة خاصة أن القرآن والسنة لم يحرّ ما الطب أو العلوم الأخرى ، والحكم الثابت في القرآن والسنة بخصوص العلوم الطبيعية أنها مباحة ولم يقم أي دليل على تحريم أو كراهة البحث فيها بل هناك حث صريح في المصدرين على ذلك البحث — وقد سبق لنا تفصيل ذلك — بل أن ذلك يعد دليلاً على ترحيب الإسلام بالبحث في كافة العلوم الطبيعية التي ورد ذكرها أو إشارات إليها في القرآن والسنة أو التي سيتم اكتشافها ولم ترد إليها إشارات صريحة في المصدرين المذكورين ، ولننظر إلي قول الله تعالى في هذا الشأن ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] أي أن ما سيخلقه الله وهو أعلم به ونحن لا نعلمه سيكون بعد خلقه علماً متاحاً للجميع وسيجرى عليه ما يجرى على العلوم الطبيعية ويكون بوسعنا نحن المسلمين البحث فيه ودراسته والبروع فيه وتطويره ، وبذا يكون ما تقدم من رأي لا أساس له وحجته داحضة .

يضاف إلي ما تقدم أن المسلمين كانوا في شغل بأمور الدعوة ونشر الدين وحمله وتوصيله إلي كافة الأرجاء فلم يكن لديهم الوقت الكافي للانشغال بالعلوم الطبيعية ومن ذلك فإن دراستهم للطب وامتهان بعضهم له في ذلك العصر المبكر من تاريخ الدعوة وهو عصر النبوة إنما جاء الأغراض عملية صرفة تنبع من فائدته الفعلية والمفترضة .

---

[1] . سورة النحل : ٨ .